ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

واقع النشاط الحرفي والصناعي ببايلك الشرق من خلال كتب النوازل نوازل ابن الفكون القسنطيني نموذجا-

The reality of craftsmanship and industrial activity in Beylik of the East through the books of Nawazil- Nawazil Ibn al-Fakun of Constantine as a model -

د- الدراجي بلخوص

جامعة الدكتور يحي فارس –المدية –الجزائر belkhosderradji@gmail.com

تاريخ الإستلام: 15 / 01 / 2022 **تاريخ القبول**:02/ 06 / 2022 **تاريخ النشر**: 14/ 06 / 2022

ملخص:

تسلط هذه الدراسة الضوء على النشاط الصناعي والحرفي ومن ورائهفئة الصنايعية والحرفيين والتي تعد من أهم الفئات الفاعلة على مستوى المجتمع القسنطيني ، فالنشاط الصناعي والحرفي يعد المحرك الرئيسي للنشاط الاقتصادي كونه يعد أهم الأنشطة الاقتصادية التي كانت منتشرة ببايلك الشرق وخاصة بعاصمة البايلك مدينة قسنطينة، مع التركيز على الدور الذي لعبته هذه الفئة في تحريك العجلة الاقتصادية من جهة ومن جهة ثانية الواقع الاجتماعي للصنايعية والحرفيين من خبازين ، وجزارين ، ودلالين وغيرهم من العناصر الاخرى، كل هذا من خلال مخطوط نوازل ابن الفكون ، هذا الأخير يعد من أهم المصادر التي تناول التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للبايلك.

الكلمات المفتاحية:النشاط الصناعي؛ النشاط الحرفي ؛ بايلك الشرق ؛قسنطينة؛ نوازل ابن الفكون .

***

Abstract:

This study sheds light on the industrial and artisanal activity and behind it the industrial and craftsmen category, which is one of the most important active groups at the level of Constantine society. On the role played by this group in moving the economic wheel on the one hand and on the other hand, the social reality of industrialism and artisans, including bakers, butchers, auctioneers and other elements, all through the manuscript of Nawazil Ibn al-Fakun, the latter being one of the most important sources that dealt with economic history and Social for the Beylik.

Keywords:*industrial activity; craft activity; Beylik of the East, Constantine, Nawazil Ibn al-Fakun.*

مقدمة

يعد النشاط الحرفي والصناعي في اي مجتمع من المجتمعات بمثابة المحرك والمنشط للحركية والنشاط الاقتصادي ، ومعيارا ومؤشرا للحالة الاجتماعية فيه ، ولنا في المجتمع القسنطيني خير دليل ومثال على ذلك . هذه الاهمية للنشاط الحرفي والصناعي لم تكن وليدة الفترة الحديثة والتي هي محل الدراسة بل اعود الى ابعد من ذلك بكثير ، فالمنطقة وعلى راسها مدينة قسنطينة تعد من اقدم المناطق التي عرفت انتشارا وازدهارا لمختلف الحرف والصنائع. من هذا المنطلق وانطلاقا من هذه الفكرة يتبادر لذهن وتفكير الباحث في التاريخ الاقتصاديو الاجتماعي جملة من التساؤلات المتعلقة بالموقع هذه الفئة ضمن مجتمعا عربيا اسلاميا كالمجتمع القسنطيني ودورها في دفع عجلة الحركة الاقتصادية، وهذا في حيز زمن يشمل القرنيين العاشر والحادي عشر هجريين (16-17م)، والذي كان بمثابة مرحلة انتقالية في تاريخ اقيم الشرق الجزائري خاصة والجزائر عامة .

فترة عرفت عدة تحولات شملت مختلف المجالات السياسية منها والاقتصادية وحتى الاجتماعية ،فهل اثرت تلك التحولات على واقع ووضعية فئة الحرفيين والصنائعية ؟ وما هي العوامل التى تحكمت في النشاط الحرفي والصناعي على مستوى البايلك ؟ وماهي الصورة التي رسمتها لنا نوازل ابن الفكون عن الحرف والحرفيين بالبايلك ؟ وماهي اهم الحرف والصنائع التي ووجدت لها حيزا ومكان ضمن هذه النوازل ؟ . ونحن بهذا المقال لا ندّعي اننا سنجيب عن الاشكاليات السابقة اجابات وافية وحقائق نهائية، وانما المقصود والمبتغى هو اعطاء صورة للنشاط الحرفي والصناعي بالإقليم ومن ورائه فئة الحرفيين والصنائعية، كل هذا من خلال مخطوط نوازل ابن الفكون .من شان هذه الدراسة ان تفتح للباحث والقارئ مغاليق الموضوع وتؤسس لأبحاث اقتصادية و اجتماعية انطلاقا من كتب النوازل والفتاوي .

أولا: التعريفبابن الفكون ونوازله:

1. التعريف بمخطوط النوازل:

يعتبر مخطوط النوازل أو كتاب النوازل لصاحبه محمد بن عبد الكريم الفكون من المخطوطات والمصادر البالغة الأهمية لدراسة تاريخ بايلك قسنطينة خاصة في شقيه الاجتماعي والاقتصادي خلال القرنين العاشر هجري (16م) والحادي عشر هجري (17م) خاصة مع ندرة المصادر في هاذين القرنين .. وهذا المخطوط هو ارث ثقافي لعائلة الفكون وهي إحدى أعرق العائلات القسنطينية.احتوى المخطوط على أكثر من ثلاثمائة (300) نازلة ، جاءت في ما يناهز 600 ورقة ، مرقمة ترقيما تسلسليا بأرقام هندية ، شملت مختلف جوانب الحياة الاقتصادية ، الاجتماعية، و الثقافية وحتى السياسية . أفتي وأجاب عنها الكثير من العلماء من جهات مختلفة من الايالة الجزائرية من تلمسان، وبجاية ، ومدينة الجزائر ، ومن خارج الجزائر من مصر والمغرب وتونس وغيرها من المناطق. و قد عمل صاحب المخطوط على تقسيمه إلى ثمانية (08) فصول، أو أقسام، كل فصل يحتوي على عدد من النوازل ، تهتم بجوانب معينة من الحياة بالبايلك . كما أنّ هذه الفصول جاءت مختلفة عن بعضها البعض من حيث عدد النوازل التي احتواها كل فصل . وقد جاء التقسيم على النحو التالي:

الفصل الأول: جاء تحت عنوان "من مسائل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام " (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 02)

الفصل الثاني: عنونه صاحبه بـ :"ومن مسائل النكاح والطلاق والخلع والعدة والنفقات" (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 37).

الفصل الثالث: عنوانه: "ومن مسائل البيوع والصرف والشفعة والقسمة والاستحقاق" (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 75)

الفصل الرابع: بعنوان: "ومن مسائل الشركة والوديعة والعارية والقراض والصلح والغصب" (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 194)

الفصل الخامس: "نوازل الأكرية والإجارة والرهون" (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 227)

الفصل السادس: جاء بعنوان: "ومن مسائل الهبة والصدقة والوصايا والحبس" (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 249)

الفصل السابع: جاء بعنوان:" ومن مسائل القضا و الشهادات والقذف والزنى والسرقة والجراح " (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 466)

الفصل الثامن : جاء بعنوان:" ومن مسائل كتاب الجامع " (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 506)

يعود تاريخكتابة المخطوط أو بالأصح تاريخ جمع هذه النوازل في كتاب، فرغم عدم وجود ما يدل لكتابته إلا أنه يمكن استنتاج ذلك، فالشيء المؤكد أن صاحب الكتاب جمعه بعد وفاة والده عبد الكريم الفكونوما يدل على هذا الطرح هو أن الكاتب كثيرا ما استعمل جملة "سئل الوالد رحمه الله" .كما أن هذه النوازل وإجابات العلماء عليها كانت محفوظة عند العائلة، وما يؤكد اهتمام العائلة بالنوازل ما ذكره الأستاذ سعد الله عن جد والد المؤلف الذي كانت له حاشية على المدونة ضمنها نوازل (سعد الله، 1986، الصفحات 37-40)و بهذا يمكن أن نقول أن كتابة هذا التأليف كان بعد 1073هـ (1662) ، كتبها ابن جامع هذه النوازل والمعروف هو ايضا باسم محمد .

2. التعريف بالكاتب:

مولده ونسبه :

هو محمد بن عبد الكريم ابن محمد بن عبد الكريم الفكون[ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 02]المكنى بأبي عبد الله (نويهض، 1980، صفحة 255) من مواليد قسنطينة في النصف الأول من القرن الحادي عشر هجري(17م) ، سليل إحدى أعرق وأقدم العائلات القسنطينية ألا وهي عائلة الفكون (سعد الله، 1986، الصفحات 37-40) ، والتي تنتسب إلى قبيلة تميم العربية (ابن الفكون ع.، 1987، صفحة 70)، وهناك من يرجع نسب العائلة الي فقونة وهي احدى القري بجبال الاوراس (سعودي، 2005-2006، الصفحات 56-57).يصفه العياشي فيقول : "..وممن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدي محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع ...سيدي عبد الكريم الفكون القسمطيمي ...على نهج ابيه وعاداته في ذلك محافظا على سلوك وسيرة والده ...والحلم والوقار ، فأحبته القلوب ومالت اليه النفوس ..." (العياشي ، 2011، صفحة 498)

تكوينه العلمي : لم نجد معلومات حول تعليمه أو المشايخ الذين أخذ عنهم ولكن رغم ذلك فالأرجح أن تعليمه كان بمدرسة العائلة بقسنطينة على يد أبيه الذي كان مدرسا وإماما وخطيبا بالجامع الكبير لمدينة قسنطينة[سعد الله، 1986، صفحة 12] ، ليصبح محمدا بعد ذلك عالما من فقهاء المالكية (نويهض، 1980، صفحة 255).

الوظائف التي تولاها :

الشيء المعلوم والمؤكد هو أن المهام والوظائف في عائلة الفكون متوارثة أبا عن جد، لذا نجد أن محمد بن عبد الكريم الفكون تولى جميع مهام والده من إمامة، وخطابة وتدريس وإفتاء في الجامع الكبير لقسنطينة، كما كانت له مهمة تسيير أحباس الجامع المذكور.

بالإضافة إلى كل المهام السابقة هناك تشريف أو وظيفة إمارة الحج والتي تعد من أهم الوظائف في بايلك قسنطينة ، وعند العائلة ،تولاها أولا عبد الكريم الفكون ، وبسبب عدم قدرته على هذه المهمة والتي تعرف بمشاقها كان ابنه محمد ينوب عنه(سعد الله، 1986، الصفحات 52-55) ، ثم بعد وفاة عبد الكريم الفكون (1073ه) خلفه محمد ابنه رسميا على رأس امارة ركب الحج ، حيث يذكر لنا العياشي في هذا الباب كيف التقى بمحمد ابن الفكون بقوله : "وممن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه ...سيدي محمد بن العلامة ..سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسمطيني ...قدمها حاجا وهو أمير ركب الجزائر وقسمطينة وتلك النواحي على نهج أبيه ... ولم يطلع امير الا في هذه السنة ، وقبل ذلك انما كان يطاع بالركب والده ،رضي الله عنه ، فلما توفي قام ولده هذا مقامه في ذلك أعانه الله وسدده ،وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الخميس 27ذي الحجة 1073ه ، شهيد بالطاعون " (العياشي، 2011، صفحة 498) ، تولى هذه المهام في سنة 1074ه- 1663م(العياشي، 2011، صفحة 55،56)واستمر اربعون سنة (40سنة) مشرفا على امارة ركب الحج ، ليخلفه بعد وفاته ابنه بدر الدين (سعد الله، 1986، صفحة 55،56).

وإذا ما قارنا محمد ابن الفكون بأبيه عبد الكريم الفكون (صاحب المنشور) ،فإننا نلاحظ أن محمدا لم يكن له تأثير على مستوى الحياة الثقافية والعلمية بقسنطينة والبايلك على حد سواء .أما على مستوى الحياة السياسية فمحمدا هذا لم تسجل المصادر التاريخية مواقفا له. ويبدو أن الاستاذ سعد الله حاول اعطاء تبريرا لحالة الخمول والركود التي عرفتها قسنطينة أيام محمد بن الفكون عكس أبيه عبد الكريم ، وهذا التبرير يكمن في تلك الحالة من الاستقرار والهدوء السياسي بقسنطينة والبايلك ، وهذا نتيجة لذلك التحالف الحاصل بين آل الفكون الذين يمثلون الجانب الروحي والبايات الذين يمثلون الجانب المادي ` توفي محمد بن عبد الكريم الفكون مع مطلع القرن12ه وبالضبط سنة 1114ه (سعد الله، 1986، صفحة 55،56)

ثانيا: **النشاط الصناعي والحرفي:**

1. **عوامل ازدهار الحرف والصنائع:**

هناك عدة عوامل وامكانيات كانت وراء ازدهار واستمرار الحرف والصنائع ببايلك الشرق الجزائري عامة والعاصمة قسنطينة خاصة . ومن اهمها نجد:

*** وفرة المواد الاولية :**

يعتبر اقليم قسنطينة من اغنى المناطق الجزائرية من وفرة المواد الاولية على اختلافها ، سنوضحها في النقاط التالية:

- كثرة وتنوع المنتجات الحيوانية من صوف وجلود، وهذا نتيجة لوفرة رؤوس الماشية بالإقليم كالأبقار ، والأغنام وغيرها من المواشي. ففي هذا المجال يذكر حسن الوزان ان المنطقة (عنابة) بها اعداد كثيرة من البقر والغنم (الوزان، 1983، صفحة 62).

- اهتمام سكان الاقليم بتربية دودة الحرير كان له دورا كبيرا في وجود ووفرة مادة الحرير، حيث تذكر إحدى النوازل" ...كثر السؤال هذه الأعوام عن الشفعة في ورق التوت لتشاحح الناس فيه لتربية دودالحرير ..."(ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 112) ، ويبدوا أن بايليك عرف نقصا ملحوظا فيما يخص ورق التوت .

- وفرة وتنوع المحاصيل النباتية وعلى رأسها الحبوب كالقمح، والشعير والذي كان يزرع في مساحات شاسعة من البايلك في كل من قسنطينة وعنابة وغيرها من المناطق حيث وفرة الاراضي الخصبة والجيدة (الوزان، 1983، الصفحات 58-62).

- يحتوي اقليم قسنطينة على انواع متعددة من المعادن وبكميات وفيرة ومن اهم هذه المعادن نجد الحديد في منطقة بونة (عنابة) بجاية وغيرها من المناطق الاخرى ، بالإضافة الى الرصاص والنحاس ..كما كانت بسكرة غنية بالملح ، بالإضافة الى الذهب الذي كان يجلب من بلاد السودان (جودت ، بدون سنة، صفحة 84)

-كثرة الغابات والأشجار ببايليك قسنطينة أدى إلى وفرة الأخشاب به والتي كانت تصنع منها السفن. بالإضافة إلى وفرة المعادن في بايليك قسنطينة وعلى رأسها الحديد بعنابة والرصاص ببلاد القبائل(سبينسر، 2006، صفحة 141) ، ووجود الآلات الصناعية كالمطاحن بالإضافة إلى وجود المياه والتي كانت تستعمل في إدارة بعض المطاحن (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 321) .

- اهتمام السكان بتطوير هذه الصناعات واستمراريتها ، حيث كانت النسوة يعملن في البيوت بينما الرجال نجدهم في الخارج حيث الأسواق. هذا الاهتمام بالصناعة من طرف السكان كان نتيجة لما توفره هذه الصناعات من منتجات يستعملونها في حياتهم اليومية أو يستفيدون من بيعها.

***النظرة الاسلامية :**

الدين الاسلامي دين يدعوا للعمل ويقدسه لان العمل عبادة ، من هذا المنطلق نجد ان الاسلام كان يحث الناس على ممارسة الصناعة ، فالكثير من الآيات القرآنية تدعوا الى العمل واتقانه ،قال تعالى ((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)) وقال: ((فأقرأوا ما تيسر من القران علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله)) ومن خلال هذه الآية نلاحظ وجود دليل على تعدد المهن والحرف . ونفش الشيء حثت عليه السنة النبوية من خلال عدة أحاديث كانت دائما تدعوا للعمل واتقانه (جودت ، بدون سنة، صفحة 84)

*** اتساع العمران :**

العمران والصناعة دائما في علاقة توافقية فاتساع العمران يؤدي الى زيادة الطلب على السلع مع اختلافها ، وهذا ما كان محققا في الجزائر عامة وقسنطينة خاصة ، حيث شهدت بايلك قسنطينة توسعا ملحوظا في عمرانه فتوسعت المدن والحواضر ، واصبحت قسنطينة من اهم المدن في الجزائر والمغرب العربي على حد سواء ، وهذا كله له انعكاس ايجابيا على الصناعة والحرف خاصة اذا توفرت القدرة الشرائية لدى السكان

*** نشاط الحركة التجارية :**

وجود القوافل التجارية وسيرها في مختلف الاتجاهات محملة بمختلف السلع والبضائع ، انعكس بالإيجاب على النشاط الصناعي والحرفي .اذ ان تصريف الانتاج يعني صناعة منتوج جديد وكسادها يؤدي الى تراجع الصناعة وموتها وربما زوالها (جودت ، بدون سنة، صفحة 84)

2. **أهم الصنائع والحرف:**

احتوت نوازل ابن الفكون على عدد لابأس به من الحرفيين والصنائعة على مستوى بايلك الشرق عامة و وعلى مستوى عاصمة البايلك (مدينة قسنطينة) بصفة خاصة ،هذه المهن الحرة والصنائع غالبا ماتكون حرفاتوارثتها الأسر أب عن جد وأحيانا تكون مهن جديدة .ففي هذا المجال يذكر فيرو انه كان بقسنطينة 35 حرفة وصنعة . (Féraud, 1872, pp. 451-454)ومن بين الصنائع والحرف التى كانت منتشرة بالبايلك النجارة ، والجزارة ، الدلالة ، الكنافة ، السقاية وغيرها من المهن الاخرى .

-النجارون :

تعتبر مهنة و حرفة النجارة من الحرف والصنائع التي كانت منتشرة على مستوى إقليم قسنطينة و خاصة المدينة قسنطينة ، وتقوم هذه الحرفة على تحويل الأخشاب إلى منتوجات متنوعة من كراسي و أواني و غيرها من المنتجات الخشبية .ولقد جاء ذكر أو إن صح التعبير الإشارة إلى صنعة النجارة من خلال تناول أحد الأشخاص المدعو أبي محمد بن عبد الله الشريف النجار ، وكما هو معروف فان الالقاب والاسماء كانت تطلق على الاشخاص كلا حسب مهنته وحرفته. فلقب النجار نسبة إلى حرفة الشخص أو حرفة أجداده (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 54).

الجزارون :

من الصناعات أو الحرف التي جاء ذكرها أو الإشارة إليها في نوازل ابن فكون مهنة الجزارة، هي مهنة أو الصنعة تتعلق بكل ما له علاقة بالذبح و السلخ و غيرها من مهام الجزارة (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 114) وجاء ذكر مهنة الجزارة في نوازل ابن الفكون بشكل يكاد يكون منعدما ، حيث تناولتها احدى النوازل بالإشارة إلى أحد الأشخاص و الذي جاء ذكره باسم الجزار و هذا الاسم يدل على مهنة هذا الشخص ، حيث يذكر السائل : "... عاينوا بيده ثور أبيض اللون مايح بصفورة قارح في سنه عتيل ذكره لهم و أنه ابتاعه من نصر بن دولة الجزار بقصد الحراثة ... " (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 114)

الدلالة:

يعتبر الدلال أو الدلالة من المهن التي كانت تلعب دورا هاما في النشاط الاقتصادي و التجاري بالبايلك وخاصة على مستوى المدن ، فالدلال يكمن عمله في النداء على مختلف عمليات البيع سواء البيع المباشر ، أو البيع عن طريق المزايدة .و من النوازل التي تناولت الدلال ومهنته نازلة جاءت على شكل رسم و سؤال ، أجاب عنها كل من العالم يحي بن سليمان و محمد ابن الفكون (الجد) ، والتي جاء فيها : " بسم الله الرحمان الرحيم ، صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليما ، هذه نسخة رسم نصه بعد سطر افتتاحه الحمد لله ، بعد أن تقرر أن من أملاك جانب المخزن المعمور من الربع الخاص بمدينة قسنطينة جميع الأماكن الذين منهم كذا و كذا و ورد أمرهم المطاع العلي من حظرة الجزاير(الجزائر) المحروسة من قبل مولانا الباشا الكبير ، المعظم الشهير ، مولانا فلان ، أعلا نصره ، ... التفويض و الإذن في بيع الربع الخاص بالمدينة المذكورة ... و نودي عليه حيث ينادي على الرباع بالمدينة المذكورة برهنة من الزمان و كان أقصى ما بلغ فيه العطا كذا و كذا . "(ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 81).

البراح :

تتمثل مهنة البراح في الإعلان عن مختلف الأخبار و المعلومات في الأسواق و الشوارع ، فلا يمكن الاستغناء عن شخص البراح في نقل المعلومة و نشرها ، و رغم أن النوازل لم تتطرق لهذه المهنة إلا نادرا من خلال نازلة واحدة أشارت إلي بيت أو دار عرفت بدار البراح ، هذه النازلة عرضت على المفتي محمد الأنصاري المشهور بالكمادي حيث يقول السائل : " ... و بعضه من الربع غيره لم يذكر فيها و ذلك ربع دار البراح و البيتين المعمورتين ... " (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 360) إلا انه ونتيجة لما يمثله البراح من دور وأهمية للمجتمع ككل .فإننا متيقنين أنه لا تكاد تخلو منطقة أو مدينة من المدن من شخص البراح .

السقاة(السقاية) :

بحكم المنطقة و ما تتميز به من نقص المياه خاصة على مستوى مدينة قسنطينة ، استغلت فئة معينة هذا الوضع من أجل الاسترزاق من خلال جلبها المياه من العيون و الأودية و بيعها في المدينة . وهذاما توكده احدى النوازل ، حيث يقول السائل : " ...عن الماء الذي يأتون به السقاية من الوادي ، ويوجد في بعضه طعم أبوال الدواب ما الحكم فيه ، هل يحكم بطهارته مطلقا ..."(ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 17)و من تولى هذه الصنعة من أبناء قسنطينة ذكر لنا ابن الفكون أبو مدين الرشى كان والده يجلب المياه من الوادي ليبيعه لأهل البلدة(قسنطينة) (ابن الفكون ع.، 1987، صفحة 70) . و هذه الصنعة نجد أنه كان يتولاها العبيد بالدرجة الاولى و هذا ما يذكره الأب دان بقوله : " أن العبيد الذين بلغوا من العمر نصيبا فانهم كانوا يوجهون إلى السقاية ، حيث كانوا ينقلون الماء على ظهور الحمير في أكياس من الجلد و يبيعونه للحمامات و ورشات البناء و الأماكن التي لا يوجد فيها الآبار ، كما كانوا يحملون قلة كبيرة على أكتافهم و يصيحون حب الما أي من يريد الماء " (شريد، 2010-2011، صفحة 219) من خلال كلام دان نجد أن بيع المياه لم تقتصر على مياه الشرب ، بل المياه باختلاف استعمالاتها . كما لم يقتصر وجود السقاة على مستوى البايلك و مدينة قسنطينة بل نجد في مختلف مدن ايالة الجزائر خاصة التي تعاني من نقص المياه ، فعلى سبيل المثال نجد أنه بمدينة الجزائر كانت هذه الحرفة من اختصاص البساكرة (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 219).

مهنةالكنافة [1]

تتمثل هذه المهنة أو الحرفة في كل ما له علاقة بالمسكن من بناء المراحيض و العناية بها ، و إصلاح قنوات و مجاريها أو ما يعرف بقنوات الصرف الصحي و غيرها من الأعمال التي لها علاقة بالمجاري المائية ، . وفي هذا المجال تذكر النازلة على لسان صاحبها بقوله: " الحمد لله حظر لشهيديه المعلم حسن الكناف و أعترف أنه فتح تابوتين بدار التاجر عزوز بحمل كذا من بلد قسنطينة أحدهما بوسط الدار المذكورة و الآخر بالمحاسي الغربي ...و أنه وجد التابوتين مسدودين بالحجر الكبير وسط الساقية ، و أن مرحاض الدار المذكورة .....بقسنطينة و ذلك بتاريخ أواسط ربيع الثاني عام ثمانية و خمسين و تسعمائة " (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 243،244)

[1] **الكنافة** :كنف الدار يكنفها كنفا : اتخذ لها كنيفا والكنيف الخلاء وكله راجع الى الستر ، وهو : السترة ، والستائر ، والترس ، والمرحاض ، وحضيرة من شجر لابل . واهل العراق يسمون ما اشرعوا من أعالي دورهم كنيف .ويقال حظرت للابل حظيرة وكنفت لها وكنفتها .انظر : أبي الحسن أحمد بنفارس بن زكريا: **معجم مقاييساللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،ج5، داراالفكر،بيروت،لبنان،1989م- 1399ه ،ص143،142.

.

صناعة الخبز (الخبازون) :

تعتبر حرفة و صناعة الخبز من أهم الصناعات و هذا نظرا لأهمية مادة الخبز بالنسبة لسكان إقليم قسنطينة خاصة والجزائر عامة ، وهذا ما وقفت عنده مختلف المصادر فالدكتور شو shaw يؤكد أنّ 3من 4 من الافراد يستهلكون الخبز والعجائن(بوشنافي ، 2015، الصفحات 41-57) وبصفة خاصة سكان المدن والحواضر. ولا يمكن ان نتطرق الى الخبز دون ان نعرج على المادة الاولية التي يصنع منها ، و المتمثلة في القمح بنوعية الصلب و اللين ، إضافة إلى الشعير ، فالحبوب عامة نجدها بشكل وفير على مستوى مناطق البايلك .

وصناعة مادة الخبز تمر على عدة مراحل : أولها مرحلة تهيئة الحبوب أو ما يعرف بالرحي أو الطحن ، و هذه العملية تتم عبر يجرنا للحديث عن المطاحن سواء الموجودة على مستوى المنازل و التي تعرف باليدوية (شريد، 2010-2011، صفحة 163)، أو الموجودة على مستوى المطاحن العامة ، و هذه المطاحن نجدها على صنفين : الصنف الاول يدار بواسطة المياه(شريد، 2010-2011، صفحة 161) ، و هذا النوع (المائية) جاء ذكره في نوازل ابن الفكون .حيث تذكر إحداها : " ... و منها أجنة قديمة الغراسة تزيد عن خمسمائة عام و هي تشرب من ماء هابط لها من أعلى أرحية للطعام تشرب الجنة المذكور من ذلك الماء " (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 321).أما الصنف الثاني فيدار بواسطة الحيوانات والدواب (حيوانية) (ابو مصطفى ، 1997، صفحة 69).و في هذا المجال يذكر لنا شولصر أن بقسنطينة كانت هناك أربع طاحونات تدار بواسطة الدواب (الخيل ، البغال) و خارج المدينة هناك 2 (رحوان مائيتان) تدار بالمياه (شولصر، دون سنة، صفحة 74)أما من حيث ملكية الرحى فهناك أرحية عامة تابعة للدولة (للسلطة) و في المقابل نجد أرحية خاصة تعود ملكيتها للأفراد أو الجماعات ، و هذا ما يؤكده قول إحدى السائلين : " ... ثم قام الان رجل إبتاع الأرحية المذكورة من بين المال وادعا و أن المخزن لما باع له الأرحية عين له في البيع الماء و أراد الان افتكاك الماء أو كرايه فهل يمكن من ذلك ..." (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 321).

تتم عملية طهي الخبز إما داخل المنازل التي بها أفران و هذا يعد قليل إذا ما قورن بعدد الأشخاص الذين كانوا يقصدون الأفران العامة لطهي الخبز (شريد، 2010-2011، صفحة 161)، والافران العمومية نجدها على مستوى كل مدينة أو قرية(بوشنافي ، 2015، الصفحات 41-57) ولقد جاءت عدة نوازل تطرقت الى وجود كوشات وافران بمدينة قسنطينة وغيرها من المناطق والمدن كميلة وغيرها، حيث يقول السائل : ""...أنها تصدقت على أخيها لأبيها ....ما ورثته عن والدها المذكور و بما تلكه في الربع المورث عنه الكائن بداخل قسنطينة و خارجها و داخل ميلة و خارجها المتمثل على دور و أعلية و أفران و كوشات ... و شهد بذلك بتاريخ أواسط شهر رمضان المعظم قدره و بالقلم الحكمي و المداد الأخضر عام خمسة و أربعين و تسعمائة و فلان ...." (ابن الفكون م.، بدون سنة، الصفحات 404-405).

وعملية طهي الخبز في الافران ليست وليدة الفترة أو العهد العثماني ، و إنما نجد لها جذورا في التاريخ الإسلامي ، فها هو أحد المؤرخين من القرن الرابع (4 هـ) (10م) ، يذكر لنا : " ... وكان من عدول بجابة ... و كان يحمل خبزه إلى الفرن بيده ..." (الغبريني ، 1989، صفحة 227)أما ابن أبي دينار فيذكر: " ... و كذلك الخبز المعلوم في أعيادهم لم ير مثلها في شهر المعمور و يتفاخرون في طعمه و يتفاوتون حتى أن الرغيف الواحد لو وضع بين جماعة من الناس من عشرين فصاعدا لكفاهم و يطول مكوث هذا الخبز إلى نحو شهر أو أكثر و هو غاية الحسن ..."(ابن ابي دينار، دون سنة، صفحة 288،289)

و قبله يذكر الإدريسي : " ...و مع ذلك فإن الخبز بتونس كان غاية في الجودة ، وهو أبيض مخبوز كما يجب ، إلا أنه لا يصنع من الدقيق فقط ، بل يخلط بالسميد و يعالج بكامل العناية ، خصوصا تهيئة العجين الذي يخبط بمدقة مثل الذي يخبط بها الأرز للتقشير في مصر" و للتمييز بين خبز كل عائلة من العائلات في مدينة قسنطينة وضعت طوابع ، فكل عائلة لها طابعها الخاص بها .ففي هذا المجال تذكر إحدى الباحثات أن أقدم طابع للخبز يعود إلى القرن 16 م (بقسنطينة الحفصية) . (ابن ابي دينار، دون سنة، الصفحات 166-168)

***مشاكل الخبازين (الكواشة) :**

لا شك أن لحرفة الخبازين أو صناعة الخبز العديد من المشاكل ، هذه المشاكل قد تتعلق بعملهم و الفائدة من ذلك ، هذه الأرباح و الفوائد حتما تتأثر ربما بنقص المادة الأولية(الحبوب) خاصة زمن القحط و الجفاف ،والجراد وغيرها من الكوارث ، وهذا ما يؤدي الي ارتفاع سعر القمح مما يضطر الخبازين الى انقاص وزن الخبز ، فوزن الخبز له علاقة بأسعار القمح، فاذا غلا ثمن القمح نقص الوزن والعكس صحيح ، وهذا ما 1667م حيث جاء الانتاج وفير ونقص سعر القمح مما نتج عنه زيادة وزن الخبز الذي كان 10 اوقيات قبل الطهي و09 بعده ، ليصل الى 13 اوقية قبل الطهي و12 بعدهوعملية الانقاص أو الزيادة في وزن الخبز لم تكن عملية من اهواء الخبازون وانما يكون لموافقة السلطة على ذلك ، وهذا حماية لمصالح الخبازين ليعود الوضع الى حاله في الاوقات العادية (بوشنافي ، 2015، الصفحات 41-57)

كما أن هناك مشاكل تتعلق بعلاقة فئة الخبازين مع مختلف الفئات الأخرى و على رأسها أمناء هذه الحرفة . هذه العلاقة التي تتخللها في بعض الأحيان توترات بين الطرفين و التي تتحول إلى نزاع بينهم ، يعود هذا النزاع إلى بعض الأسباب و التي حسب نوازل ابن فكون من بينها قضية تموين الخبازين بعدة منتجات ، هذا التموين يبدو من خلال النوازل أن أمناء الخبازين هم الطرف المسؤول على تموين الجند بالخبزفهم الواسطة بين الخبازين و الجند .و نتيجة الاختلاف الحاصل بين الخبازين من جهة و الأمناء من جهة أخرى حول الديون المترتبة للخبازين على الجند .و هذا ما توضحه النازلة المطروحة على يحي المحجوب و التي جاء فيها : " ... جوابكم في مسألة و هي جماعة الكواشة بينهم و بين أمنائهم محاسبات على ما أخذوه بجانب المخزن الموفور من البشماط و غير ذلك أفضت المحاسبات بينهم إلى التشاجر ..." (ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 496) . ليتطور الصراع بعد ذلك و يأخذ أبعادا أخرى ، خاصة بعد حدوث عدة أعمال تخريب منها إحراق ممتلكات بعض الكواشة ، و إتهام الأمينان بذلك ليسجنهما بعد ذلك ، وهذا ما نستشفه من كلام السائل : " ... واحترق نادر لبعضهم بليل فاتهم رب النادر الأمينان اللذان وقع معهما التشاجر فرفع أمره رب النادر لصاحب البلاد و قبض على المتهمين و سجنهما بسبب ذلك ..."(ابن الفكون م.، بدون سنة، صفحة 496) توضح لنا هذه النازلة مدى ما كان يعانيه الكواشين من مصاعب ، وهنا لا نجزم أن الخطأ كان من الأمينان و لكن لا ينفي أن يكون الكواشين ربما تعرضوا إلى نوع من التحايل من طرف الأمناء، هؤلاء ربما استغلوا علاقتهم من المخزن (السلطة) للتعدي و استغلال الكواشة(الخبازون) من خلال عدم تسديد بعض المستحقات للكواشة .

صناعةالحلي :

تعتبرصناعة الحلي من من الصنائع والحرف المعروفة والمتوارثة بالبايلك (المدينة)وهذا منذ العصور القديمة من العصور القديمة ، وهذه الحرفة نجدها بصفة خاصة على مستوى المدن والحواضر الكبرى وعلى راسها مدينة قسنطينة. أما الفترة الحديثة (العثمانية) فاشتهرت هذه الصناعة على مستوى البايلك ، حيث نجد طائفة الصياغة التي مهمتها صناعة الحلي بمختلف أنواعها و أحجامها و أشكالها ، و في هذا المجال ذاع سيط الطائفة اليهودية التي كانت تشرف على هذه الصناعة بصفة خاصة (معاشي ، 2007-2008، الصفحات 164-167) ، فالحلي بمختلف أنواعها كالخلخال ، السحاب ، المقياس و غيرها لا يمكن الاستغناء عنها في شوار

البنت القسنطينية(حميود ، 2004-2005، صفحة 44)، و يرتبط تواجد الحلي و كميته في الشوار بمستوى المعيشي للبنت و أسرتها . فالبنت التي تنتمي للعائلات المعروفة ذات المكانة المالية ، و العائلة نجدها تجهز بمختلف أنواع الحلي عكس البنت الفقيرة (ابن الفكون م.، بدون سنة، الصفحات 46-48)

النحاسون :

عرفت صناعة أو حرفة النحاس شهرة كبيرة بباليك قسنطينة خاصة على مستوى المدينة قسنطينة ، فالنحاس نجده يحتل مكانة هامة في حياة السكان على مستوى الإقليم ، حيث نجده على مستوى الاستعمال اليومي و على مستوى مكونات الزينة بحيث لا يكاد يخلو جهاز أو شوار عروس من عرائس قسنطينة من النحاس ، فالنحاس أصبح جزءا من مكونات الشوار (حميود ، 2004-2005، الصفحات 43--44)، و هذا ما جاءت به العديد من النوازل ،كان من أهمها النازلة التي أجاب عنها يحي المحجوب أبو زكريا و التي من أهم ما جاء فيها يخص النحاس : " ... جزء من شوار البنت القسنطينية..." (ابن الفكون م.، بدون سنة، الصفحات 46-48)

و من أهم الأواني المصنوعة من النحاس نجد السني ، المحبس ، المرش ، و غيرها من الأواني سواء المستعملة بشكل يومي أو تلك المستعملة في الأيام الخاصة كالأعياد و المناسبات كالشمعدان الذي يستعمل في المولد (حميود ، 2004-2005، صفحة 44).

. الطرازون :

حرفة و صنعة التطريز من أشهر الحرف على مستوى باليك قسنطينة ،فالقندورة القسنطينية تعد من أشهر الألبسة بالباليك و القطر الجزائري على حد سواء (حميود ، 2004-2005، صفحة 44)

الخاتمة:

في الاخير و من خلال تطرقنا للنشاط الحرفي والصناعي و للفئة للحرفيين والصنائعية في قسنطينة من خلال نوازل ابن الفكون خرجنا ببعض النتائج سنحاول تلخيصها في النقاط التالية :

** رسمت لنا نوازل ابن الفكون صورة تكاد تكون شاملة لمختلف الحرف والصنائع التي كانت تمارس ومنتشرة في مختلف مدن وأرياف باليك قسنطينة ومن ورائها اصحابها او بعبارة اخرى فئة الحرفيين والصنائعية ، هذه الفئة التي كان لها دورا في تنشيط الحياة الاقتصادية على مستوى الباليك .

** التنظيم الحرفي والذي كان على شكل جمعيات أو تنظيمات أو طوائف كطائفة الدباغين الصفارين وغيرها من الطوائف الحرفية وكل طائفة يشرف عليها امين كما أنّ الاسواق في قسنطينة كانت مقسمة الى شوارع واحياء كل واحد منها يعرف باسم (الصنعة) أو الحرفة الموجودة فيه ، فعلى سبيل المثال لا الحصر شارع(زنقة) الحدادين أو الصياغين هذا التنظيم والهيكلة ان دلت فإنما تدل على ذلك الرقي والازدهار التي كانت تعرفه النشاط الحرفي في قسنطينة حتى وان كان لا يضاهي ما وصلت اليه الدول الاوربية .

**الحرف والصنائع في قسنطينة على غرار المناطق الجزائرية الاخرى نجدها مقسمة او مصنفة حسب الشرائح الاجتماعية فكل شريحة نجدها تختص بحرفة او مهنة معين وهذا لعدة اسباب تدخل فيها توارث الحرفة بين افراد العائلة اب عن جد هذا من جهة .كما كان لطبيعة الحرفة أو الصنعة من حيث المدخول ومن حيث الصعوبة او النفور فاذا كانت مهنة السراجة تجلب اليها ابناء العائلات الكبرى والمعروفة بقسنطينة فان مهنة الكنافة كان ينفر منها الجميع وكان يتولاها اليهود .

** بعض الحرف والصنائع اختص بها فئات اجتماعية وافدة الى المدن من مختلف المناطق الداخلية ومن الصحراء هذه الفئات تعرف بالبرانية ، ومن اهم هذه الحرف نجد صناعة الخبز ، وما يشد الانتباه هو أن هذه الخاصية لاتزال الى يومنها هذا وخاصة على مستوى المدن الكبرى كقسنطينة حيث نلاحظ ذلك الاضطراب الذي يمس مادة الخبز في ايام المناسبات والاعياد الدينية والوطنية وهذا نتيجة عودة العاملين في هذه الانشطة الى ذويهم وأهاليهم.

**اهتمام الطائفة اليهودية بمختلف الحرف والمهن وخاصة حرفة الصياغة وصناعة الحلي كان بسب ما تدره هذه الحرف من اموال عليها كما نهم كانوا لا ينفرون من مختلف الاعمال كحرفة الكنافة او تسريح قنوات الصرف الصحي وغيرها هذا المنطلق كان له نتائج على هذه الطائفة بحيث اصبحت تمتلك المال ومن ثم امتلاك السلطة ولنا في الاخوة بكري وبوشناق كاب مثال على ذلك .

** ازدهار الحرف والصنائع في قسنطينة ومختلف المدن والحواضر الجزائرية كان نتيجة لعدة عوامل متظافرة فيما بينها وفرة المواد الأولية والامكانيات من جهة ومن جهة ثانية العنصر الاندلسي ومهاراته الحرفية .و مشاركة العنصر التركي والمتمثل في الانكشارية هذه الاخيرة كانت في قسنطينة تلعب دورا فعالا في النشاط الصناعي والحرفي وهذا بغض النظر عن الاسباب والدوافع التي كان وراء هذا الدور .

** رغم كل ما تقدمه فئة الحرفيين والصنائعية للنشاط الاقتصادي إلا أنّ الوضعية الاجتماعية لهذه الفئة كانت صعبة ، و هذا كان نتيجة حتمية لتلك التحولات التي عرفها بايلك الشرق والتي مست مختلف المجالات السياسية الاقتصادية وغيرها من مناحي الحياة.

**اهمية اصحاب الحرف والصنائع في المنظومة الاقتصادية والاجتماعية لم يشفع لها من التعرض لمختلف المضايقات والمشاكل خاصة من طرف جهات من السلطة الحاكمة في البايلك او من جهات محسوبة على هذه السلطة ، وخاصة الحرف والصنائع المرتبطة مباشرة بالسلطة او التي تمولها مثل ما هو الحال مع فئة الخبازين .

الإحالات والمراجع:

1.الغبريني ابو العباس : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، حققه وعلق عليه عادل نويهض ، ط2 دار الافاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، 1989.

2.نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر -من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، - مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر بيروت- لبنان، 1400هـ 1980م. الطبعة الثانية.

3.الجيلالي عبد الرحمان بن محمد ، تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة بيروت، لبنان1403هـ- 1983م ، ط6،ج3.
4.أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،ج، دار االفكر، بيروت، لبنان،1989م-1399ه ،
5.أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،ج، دار االفكر، بيروت، لبنان،1989م-1399ه ،
6.الكنافة :كنف الدار يكنفها كنفا : اتخذ لها كنيفا والكنيف الخلاء وكله راجع الى الستر ، وهو : السترة ، والستائر ، والترس ، والمرحاض ، وحضيرة من شجر لابل . واهل العراق يسمون ما اشرعوا من أعالي دورهم كنيف .ويقال حظرت للابل حظيرة وكنفت لها وكنفتها .انظر : أبي الحسن أحمد بنفارس بن زكريا:**معجم مقاييساللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،ج، دارالفكر،بيروت،لبنان،1989م-1399ه ،ص143،142.
7.سعد الله أبو القاسم ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية ، دار المغرب الإسلامي1406(1986).الطبعة 1.
8.الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار العرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1983.الطبعة 2.

9.معاشيجميلة،الانكشارية والمجتمع بباياك قسنطينة في نهاية العهد العثماني ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث ، جامعة منتور بقسنطينة، 2007-2008.
10..شريد حورية :تطور المطبخ المغربي وتجهيزاته من عصر المرابطين الى نهاية العصر العثماني"دراسة تاريخية واثرية ، اطروحة دكتوراه في الاثار الاسلامية ، جامعة الجزائر-2- 2010-2011 . ج1
11.حميود رتيبة : الالغاز الشعبية في مدينة قسنطينة "دراسة احصائية تحليلية " ، مذكرة ماجستير في الادب ، تخصص أدب شعبي ، كلية الاداب واللغات ،2004-2005 ابن الفكون عبد الكريم ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1408هـ- 1987م.الطبعة 1.
12.جودتعبدالكريميوسف،الأوضاعالاقتصاديةوالاجتماعيةفيالمغربالأوسطخلالالقرنين3-4 هـ/ 9-10م.بدونسنة..
13.العياشي عبد الله بن محمد : الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمىّ ماء الموائد ، ج2،تحقيق وتخريج وتعليق الشيخ احمد فريد المزيدي ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ،2011.
14.سولصر فندلين ، قسنطينة أيام أحمد باي1832- 1837، ترجمة وتقديم، الدكتور أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.بدون سنة.
15.كأبومصطفىكمال،جوانبمنحضارةالمغربالإسلاميمنخلالنوازلالونشريسي،مؤسسةشبابالجامعة،الإسكندرية،1997.
16..بن ابي دينار محمد بن ابي القاسم :المؤنس في اخبار افريقية وتونس ، ط1، تونس ابن الفكون محمد بن عبد الكريم : مخطوط النوازل. نسخة خاصة.
17.م بوشنافي محمد : صناعة الخبز ومقوماته في الجزائر خلال العهد العثماني(1520-1830) ، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، العدد رقم10، ديسمبر 2015.
18..سبينسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر2006م.
19.سعودي يمينة : الحياة الادبية في قسنطينة خلال الفترة العثمانية ، شهادة الماجستير في الادب الجزائري القديم ، جامعة الاخوة منتوري قسنطينة ، 2005-5006.

.20Féraud (ch.), Les Corporations des Métiers à Constantine avant la Conquête Français, Rev. Afr., vol 16, 1872, pp451-454